لقاء مع الفنّان يوسف أبو وردة

أجراه: فراس خطيب

عاش كلَّ المراحل، وانسابت الموهبةُ في عروقه. انطلق بقناعةٍ تامة في درب التمثيل، على الرغم من أعباء هذا المجال وصعوبة العيش في ظله، حتى بات اسمُه لامعًا في الإنتاجات الفلسطينية وامتدادًا إلى الإنتاجات العبرية. وها هو اليوم يحمل تاريخًا مشرِّفًا من الأعمال الفنية، ويُعتبر واحدًا من أعمدة المسرح العربيّ والعبريّ في البلاد. وقبل ثلاثة أسابيع كرّمته إدارةُ مسرح الميدان لدوره الهامّ في خلق نواة مسرحية عربية في البلاد.

بدأتْ ميولُه التمثيلية في فترة التعليم الثانويّ، فالتحق بمعهد «بيت تسفي.» وبعد أن أنهى تعليمَه هناك كان واضحًا بالنسبة إليه أنّه سيَعمل في المسارح العربية. لكنَّ هذه المسارح كانت تَشْهد فترةَ ركودٍ صعبةً جدًا، وحتَّمَ الواقعُ عليه الدخولَ إلى المسارح العبرية.

شارك في مهرجان «كانْ» السينمائيّ العالميّ. حاز جوائزَ كثيرةً، وترشَّح في فترات متقاربة للعديد من الجوائز عن أدواره. من الأعمال التي أنتجها: «الملك هو الملك» و«أكسدنت موت فوضويّ» و«رابطة دم».

إنَّه الفنّان يوسف أبو وردة، الذي نجري معه هذا الحوارَ الخاصّ بـ الآداب.

المسرح العبريّ وواقع الاغتراب

يقول أبو وردة: «عندما انضممنا إلى المسرح العبريّ في السبعينيات كانت هناك روحٌ تَدْعم الانخراطَ داخل المجتمع العبريّ، مثلُ الحزب الشيوعيّ وقيادته (إميل توما، إميل حبيبي...) فعند تخرُّجنا لم يكن الأمرُ سهلاً، واضمحلت الخيارات: فإمّا أن تَعْمل في المسارح العبرية، وإمّا أن تخوض فترةً تجريبيةً ضمن إطار عربيّ ـ وعندها يتمّ الاستغناءُ عن الأولوية الأولى، ألا وهي مهنة التمثيل ـ فتعملَ في المسرح مرةً كلّ عام. ولكنْ مهما اكتسب المرءُ من معرفة ومن انخراط في الثقافة الإسرائيلية وفي المجتمع الإبداعيّ الإسرائيليّ، فلا بدّ من حيّز يعرقل طريقَ التعبير. وهذا ما أَشعرُه. أنا لستُ ملتحمًا بالمسارح العبرية أبدًا. بل إنّني أشعر هناك بالاغتراب الثقافيّ.»

فلسطينيّ في مسرح عبريّ

انتقل أبو وردة من مسرح «بئر السبع» العبريّ إلى المسرح البلديّ في حيفا، واشترك في العديد من الأعمال المسرحية في فترة الثمانينيات. وكانت تلك فترةً عانت وضعًا سياسيًا متوتِّرًا، ولعب المسرحُ فيها دورًا لا يُستهان به على الإطلاق، إذ تحدَّث عن الكثير من الأمور الهامة: كالتمييزِ العنصريّ، والخلافِ السياسيّ الاجتماعيّ بين المتدينين والعلمانيين في المجتمع اليهوديّ، ووقْع النكبة على حياتنا السياسية. وكان هناك مَنْ تقبَّل الطرحَ ومَنْ رفضَه، بل كان هناك مَنْ هاجَمَ المسرحَ والممثلين العربَ بشكل خاصّ على الأدوار التي كانوا يقومون بها. يقول أبو وردة عن هذا الموضوع:

«أَذْكر أنّني قمتُ بدورِ ممثلٍ فلسطينيّ (قصة المسرحية عبارة عن فيلمٍ يمثِّل داخل مسرحية) يتحدَّث عن معاناته كفلسطينيّ. وخلال قيامي بالدور وقف أحدُ المشاهدين وقال لي بصوت عالٍ: ' اذهبْ وتحدَّثْ عن مشاكلك في الأردن لا هنا.' كانت هذه الأحداث تتكرَّر وتولِّد النقاشات. ناهيك عن الرسائل التي كانت تصلني إلى البيت، وأَذْكر منها رسالةً من إحدى المشاهدات جاء فيها: ' أنت الشابُّ الجميل ذو الكتفيْن العريضتيْن الجميلتيْن، لماذا تُحمِّل هذيْن الكتفيْن قضايا سياسية؟ اهتمَّ بالمسرح فقط!'»

سألتُ أبو وردة: أين يلتقي المسرحُ العبريّ والمسرحُ العربيّ فيكَ أنت؟ فأجاب: «هناك قيمة إضافية اكتسبتُها من المسرح العربيّ وتَظْهر على المسرح العبريّ، وبالعكس. مثلاً الارتجال والخيال يُضْفيان في بعض الأحيان حيويةً على عملي في المسارح العبرية.

لقاء مع الفنان يوسف أبو وردة

ومن جهة أخرى اكتسبتُ أمورًا مثلَ الانضباطِ وبرمجةِ الحركة من المسرح العبريّ، وأستعملُها على المسرح العربيّ.»

المسرح العربيّ في مناطق ٤٨: من التأسيس إلى الاستقالة

تمتّع المسرحُ البلديُّ في حيفا بفترة ذهبية في الثمانينيات، وكان يُعتبر من أحسن المسارح في البلاد. ولكنْ بدأت الأمورُ تأخذ اتجاهًا آخر، وتعرَّضَ المسرحُ لضغوط من قِبل البلدية والأحزاب اليمينية. وفي الوقت نفسه افتُتح مسرحُ «الشمال» الذي استقطب غالبيةَ مشاهدي مسرح حيفا. ويرى أبو وردة أنّ تلك الضربة لم تكن سهلة، وأنّ المسرح البلديّ في حيفا حتى هذه اللحظة لم يصحُ منها.

يقول أبو وردة: «المثابرة والاتصالات والسعي من أجل إقامة مسرح عربيّ في البلاد أمورٌ حصلتْ في جميع المراحل. وكنّا دائمًا نحتجّ على عدم وجود مسرح مستقلّ، برغم المحاولات الكثيرة. ومع استلام النائبة اليسارية شولميت الوني وزارةَ التربية والتعليم، بدأ المشروعُ يأخذ طابعًا عمليًا. وجاءت فكرةُ المسرح العربيّ لتسدّ حاجةً ثقافيةً عند الجيل البالغ بشكل خاصّ، لأنّ غالبية الأعمال المسرحية التي أُنْتجت اهتمت كثيرًا بالأطفال، ولم تُنْتَجْ أعمالٌ مسرحية تهتمّ بالجيل البالغ. الهدف الثاني هو ممارسة المسرح العربيّ لدور معقول وضروريّ في الحركة الفكرية عامةً. يُضاف هدف ثالث، وهو تحفيزُ المجتمع على خلق حاجة إلى استهلاك المسرح والتمثيل. كلّ هذه الاهداف جاءت ضمن الحفاظ على الهوية العربية الفلسطينية وعلى اللغة العربية.»

ويتابع أبو وردة: «غير أنّ المسرح المهنيّ والراقي يحتاج إلى الكثير، بينما واقعُ السوق يجعلك تتنازل عن أمورٍ مثل الديكور والإضاءة والصوت وما شابه. ولكنْ على الرُّغم من عدم استعداد السوق لاستيعاب هذه الأعمال، فإنّني لم أتنازل أبدًا عن موقفي كما فعلتْ مسارحُ عربيةٌ من قبلي. إنّ موقفي هذا، في مقابل موقف الإدارة التي أخذتْ في عين الاعتبار الأمورَ الماديةَ بالإضافة إلى السوق، قد فَرَضَ وضعيةَ توتّر. وكان خلافُ الرؤية مصدرًا للمشاكل التي وصلتْ إلى مستويات شخصية. وفي النهاية قررتُ الاستقالة.»

المسرح الفلسطينيّ والمباشرة

يقول أبو وردة: «نحن موجودون في واقع حَتَّمَ علينا، في أغلب سنواتِ إبداعِ الفنان الفلسطينيّ، أن تكون القضيةُ محصورةً في القضية السياسية وفي الصراع الفلسطينيّ ـ الإسرائيليّ. لقد كان هذا الصراع هو الشغلَ الشاغلَ لكلّ القضايا، الأمرُ الذي أَنتجَ الكثيَر من الأعمال التي انحصرتْ فيه بشكل مباشر. ولكنْ في آخر الثمانينيات، ومع خروج منظّمة التحرير الفلسطينية من بيروت ودخولِ السلطة الفلسطينية إلى الأراضي المحتلّة، أصبح المبدع الفلسطينيّ يفتّش عن بديل لشعار المقاومة المباشر؛ وتلك كانت مرحلةَ بحثٍ عن الذات. فحلّ هناك شعور بالضياع.»

ويتابع أبو وردة: «قبل الانتفاضة الأولى كنّا نَصْعد على خشبة المسرح ونعبِّر عن مشاعرنا. ولكنْ عندما اندلعت هذه الانتفاضةُ عام ١٩٨٧ أصبحت المسألةُ أكبرَ بكثير من الكلمة. ومع بداية عام ٩٣، وصل جمهورُ المسرح في البلاد إلى حالة إشباع من هذه الموضوعات.»

تُرافِق حديثَه ابتسامةٌ خفيفةٌ. يَصْمت لبرهةٍ ثم يواصل: «في أوائل الثمانينيات عندما كنّا في مهرجان ايدين بورو للمسرح في اسكتلندا، عَرَضْنا مسرحيةً هناك من إنتاج المسرح البلديّ في حيفا. مشينا في الشارع، والتقينا بشابّ إيرلنديّ وبصديقته (لبنانية). سَأَلَنا مِنْ أين أنتم، فأجابه أحدُنا أنّنا من إسرائيل. فقام هذا الشاب من مكانه وبَصَقَ في وجهي أنا! ماذا أقول لك؟! كانت

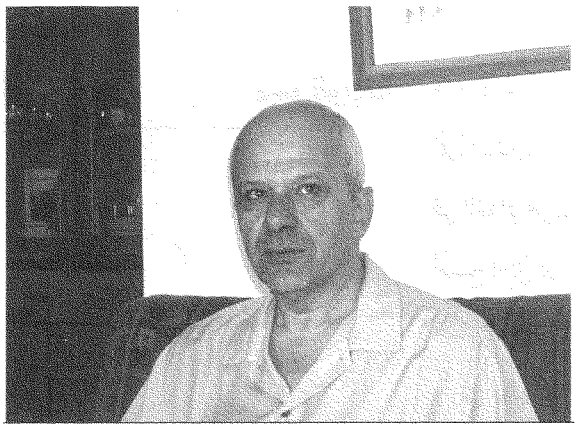

الفنان يوسف أبو وردة في لقاء خاصّ

أجملَ بصقةٍ في حياتي. لقد فرح الفلسطينيُّ الذي في داخلي؛ فرح كثيرًا كثيرًا. كانت هذه الفترة متوترةً سياسيًا؛ فقد حصلتْ مجزرةُ صبرا وشاتيلا. وقمتُ فجلستُ وسهرتُ مع هذا الشاب الإيرلنديّ الذي بَصَق في وجهي حتى الصباح!»

رؤية ذاتية في أعماله

سألتُ أبو وردة عن أكثر الأعمال التي استمتع بها فأجاب: «'حكاية الصلاة الأخرى' التي كتبها داريو فو وقام بإخراجها فرانسوا أبو سالم. وهي مسرحية لممثل واحد قمتُ أنا بتمثيلها. الفكرة كانت جميلةً جدًا، وحازت الكثيرَ من ردود الفعل الإيجابية.»

وعن الأعمال التي يقوم بها حاليًا قال: «أعرض هذه الأيام مسرحية 'عمة تشارلي' التي أنْتجها المسرحُ البلديّ في حيفا، إضافةً إلى مسرحية 'أبو البيت.' وتلقيْتُ عرضيْن لفيلميْن: الأول إسرائيليّ من إخراج وسيناريو شموئيل كالدرون بعنوان وتدور أحداثُه حول شابّ أصيب بصدمة من جرّاء 'بوستراوما' الحرب فدخل مستشفى الأمراض العقلية، ويتّضح أنّ مدير هذا المستشفى الذي يقوم بعلاجه كان قد مرّ هو أيضًا بالحالة نفسها من جرّاء مجزرة دير ياسين. أما الفيلم الثاني فهو من إنتاج إيطاليّ، وتدور أحداثُه حول عائلة فلسطينية تعيش في بيت مؤلف من طابقين، وتقوم قوات الاحتلال باحتلال الطابق العلويّ، فيتمسّك أبو البيت بالطابق الأسفل.»

وختمتُ لقائي معه بسؤال عن طموحه فأجاب: «أحلم بتمثيل مسرحية عربية، وأن تُعرض ٣٠ عرضًا في الشهر على مدار السنة.»

يوسف أبو وردة:

أحد أبرز أعمدة المسرح العربيّ والعبريّ.